معرفية التقابل في التعريف والتعريف المغالطي في "باب الفحص في أمر دمنة"

أ.د هاجر مدقن
مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب
كلية الآداب واللغات،جامعة قاصدي مرباح، ورقلة
hadjermeda@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/03/25	تاريخ القبول: 2020/05/09	تاريخ النشر: 2020/06/01

Summary :
The methodology of convergence is based on presentation and confrontation between the components and levels of speeches, and their corresponding analysis to show the relationships, patterns, geometry and methodologies of these speeches, in cognitive approaches supported by linguistic, rhetorical and critical effort .
In a closer reading of the "door of examination in the matter of the matter of the matter of the matter of the matter of the matter of the "Man", in the book of Ibn al-Maqqaf ("Kalila and Damna"), the mechanisms of the pilgrims required by the judicial place are clearly organized, and imposed by the judicial context upon which it was built, to highlight the argument: the argument and its opposite in the formulation of a definition that deliberates the sum of values being built from two points of view :
-The prosecutor's starting point: in an explicit and accusatory argument, it turns into a fallacy at the other end.
-The starting point of the accused: in the pilgrims of a defensive maggot, and turns to the explicit at the other end.
Between this and that, definitions are formed with knowledge values in which all methods of language, rhetoric, pilgrims and criticism are organized, finally producing the definition and the fallacy.
Keywords: convergence, knowledge of values, definition, meta-definition, judicial denominator, judicial context.

مُلخّص البحث

تقوم منهجية التقابل على العرض والمواجهة بين مكونات الخطابات ومستوياتها، وتحليلها تقابليا لبيان علاقات وأنساق هذه الخطابات وهندستها وأنظمتها القاعدية، في مقاربات معرفية يسندها الجهد اللغوي والبلاغي والنقدي.

في قراءة متفحصة لـ: "باب الفحص في أمر دمنة" في كتاب ابن المقفع "كليلة ودمنة"، تنتظم بجلاء آليات الحجاج التي اقتضاها المقام القضائي، وفرضها السياق المحاكمي الذي بني عليه؛ لتبرز آليتا المحاجة: الحجة ونقيضتها في صياغة تعريفية تتداول مجموع قيم يجري بناؤها من منطلقين:

- منطلق المدعي: في حجاج صريح اتهامي، ويتحول إلى مغالطي عند الطرف الآخر.
- منطلق المتهم: في حجاج مغالطي دفاعي، ويتحول إلى صريح عند الطرف الآخر.

وبين هذا وذاك تتشكل تعريفات بقيم معرفية تنتظم فيها كل أساليب اللغة والبلاغة والحجاج والنقد، لتفرز في الأخير التعريف والتعريف المغالطي.

الكلمات المفتاحية: التقابل، معرفية القيم، التعريف، التعريف المغالطي، المقام القضائي،السياق المحاكمي.

مدخل:

ربط كثير من أعلام الفكر وأقطاب الفلسفة في الثقافة العربية الإسلامية قيم العالم بالازدواج، أو الثنائية أو التقابل الثنائي، أو ما سمي **بالمثنوية** < فقد أوجد الله أشياء مثنوية مزدوجة، وجعلها قوانين الموجودات وأصول الكائنات >[1]، < واختلف الفلاسفة في هذا الأصل المثنوي أهو الهيولى والصورة، أم النور والظلمة، أم الحركة والسكون، أم الخير والشر، أم الإيجاب والسلب، أم الروحاني والجسماني، أم اللوح والقلم، أم المحلة والغلبة، أم الوجود والعدم، أم الدنيا والآخرة؟ وتبعا لذلك توجد تصاريف الأحوال الثنائية، مثل الحياة والموت، النوم واليقظة، المرض والصحة، الألم واللذة، الصلاح والفساد، الخير والشر. ومن ثمة وجدت أحكام الأمور الشرعية: الأمر والنهي، الترغيب والترهيب >.[2]

هذه الثنائيات تسمى تقابلا، والتقابل يقوم على إحداث التمثل الذهني عبر المقابل، وهو تفكير درج عليه علماء العرب قديما في تعريف الشئ بماهيته، أو بضده، أو بمثاله، وهي عمليات يعمد العقل إلى تبسيطها بشكل ظاهر أو خفي.[3] وما دام التبسيط آلة للإفهام فهو يستدعي التقابل كما يستدعي التناظر، أو المناظرة؛ كلاهما عقلي منطقي يتأدى في جدليته وتداوله: الادعاء والمنع والتدليل[4]، ويبني احتمالاته على العلاقات الممكنة بين العناصر الذهنية: كالتوافق

والتعارض والتتميم[5]. على هذا الأساس التقابلي التناظري المزدوج بنيت؛ بل تأسست كثير من التوجهات الفكرية التي أضحت فيما بعد نماذج ومرجعيات عرفاني- معرفية تنهل من بعضها لتنساب في مجرى واحد لا يحيد في طريقه عن تحويط كثير من البناءات المؤسساتية للمجتمعات قديما وحديثا، وإن تباينت أشكال تظهيرها وإشاعتها بين الناس خاصة وعامة.

معرفية التقابل:

يضعنا هذا العنوان أمام مكونين يتواطآن بشكل ملتف حول المعنى؛ الأول: تداخلات العرفان المعرفية في تشكلاته من العلوم المتعددة – علم النفس والفلسفة والإعلام، الذكاء الاصطناعي،..-، وأثره كنظام فاعل في محيطه عن طريق التمثيلات الذهنية التي يشكلها عن هذا المحيط تشكيلا تمليه الثقافات والعقائد والرغائب، فتستحيل تمثيلات ذهنية داخلية غير واعية،[6] ويتيح لها الحكي توظيف المادة التاريخية دون الخضوع لمفهوم الزمن، ومعالجة القضايا الحضارية، ويمنحها بعدا روحيا عرفانيا.[7] والثاني: التقابل؛ وتأويل التقابل يقوم على منهاجية العرض والمواجهة بين المكونات والمستويات، والنصوص والخطابات، ثم تحليلها تقابليا لبيان علاقاتها وأنساقها، وهندسة الخطاب ونظامه القاعدي الذي يعتمده الإنسان عند استعماله للغة وأثناء التفكير والفهم، في محاولات عرفانية تسندها جهود لغوية وبلاغية ونقدية كثيرة، لإبراز الجانب غير الواعي أو الخفي من تعاملنا مع المعنى، ثم إظهار قيمته وقوته في الفهم والإفهام، والوقوف على البنية العميقة التي تحكم تصرفاتنا وأقوالنا وتأويلاتنا للكون المتقابل وأحوال الدنيا المتقابلة.[8]

من هذا يتضح مبدأ تقسيم الدكتور "محمد بازي" التقابل إلى وظائف ثلاث:

1- **الوظائف البلاغية والإبلاغية باعتبار جهة الإنتاج:** أي ما يحققه البناء التقابلي الظاهر والخفي من تواصل وتبالغ بين أطراف الخطاب.
2- **الوظائف البنائية والجمالية والتأثيرية للتقابل باعتبار جهة النص:** يبني التقابل نسيج النص من أوله إلى آخره عبر التقابلات بين الكلمات والجمل والفقرات، وبين المضامين أو الأفكار أو التصورات، وهذا ما يضفي ملامح جمالية على النص ترفع من درجات نصيته واتساقه.
3- **الوظائف التأويلية والتفهمية باعتبار جهة المتلقي:** وهو ما يسمح به الإجراء التقابلي من إمكانيات هائلة لفهم النصوص والخطابات، وإدراك معاني الكلمات بمقابلتها بغيرها من داخل النص وخارجه.[9]

لم تخرج هذه الوظائف في عموم اشتغالاتها عن التفاعل ثلاثي الأطراف بين فواعل التواصل (المنتج، النص، المتلقي)، إلا أنها تنظم بشكل ما عمل الإنتاج والتلقي في صوره

التقابلية، وتؤطر نوع التقابلات التي خرَّجتها أنواع الخطابات المنتجة في الفكر العربي القديم خاصة، والتي كان التقابل من أهم آلياتها، ويظهر هذا خاصة في خطابات المناظرات والمحاكمات التي سينصرف إليها اهتمامنا في هذا العمل، ونخص هنا تحديدا الحواريات المحاكماتية التي جاءت في آداب السلاطين كما صنفها النقد القديم والحديث، تلك الكتابات التي تداخل فيها البشر والحيوانات، في رسائل تعليمية توجيهية أراد بها صانعو هذه الخطابات إرساء كثير من قيم المجتمعات وسياسات حكم الناس والعدل بينهم عن طريق تمريرها ترميزا وتصويرا وتورية لا ينفذ إلى بواطنها إلا فئة من المتلقين الذين وضعوا على رأس قائمة الاعتبارات.

ولقد أشار "ابن المقفع" إلى هذا بشكل صريح في تقديمه لكتابه: "كليلة ودمنة": < وقد جمع هذا الكتاب لهوا وحكمة، فاجتباه الحكماء لحكمته، والسخفاء للهوه. فأما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه وخف عليهم حفظه >[10]، ويفصل أكثر: < فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف الوجه الذي وضع عليه ولا يكن همه بلوغ آخره ليعرف إلى أي غاية يجري مؤلفه فيه وأي شئ يخشى منه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها مثالا وأمثالا فإن قارئه متى يفعل ذلك ولم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يُجتنى منها ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما يصفه هذا الكتاب فإنه ولو استتمَّ قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شئ يرجع إليه نفعه >.[11] ومع ذلك يذهب إلى تبيان المستهدفين الأربعة من القراء: < وينبغي للناظر في هذا الكتاب و مقتنيه أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أقسام وأغراضٍ: أحدها ما قصد من وضعه على ألسن البهائم غير الناطقة ليتسارع إلى قراءته واقتنائه أهل الهزل من الشبان، فيستميل به قلوبهم لأن هذا هو الغرض بالنوادر من الحيوانات. والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الألوان والأصباغ ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم أشد للنزهة في تلك الصور. والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مر الأيام؛ بل ينتفع بذلك المصور والناسخ أبداءِ والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك يخص الفيلسوف خاصةً >[12]. يحدد ابن المقفع هنا نوعية القارئ بالفيلسوف، ويؤكد على الخصوصية "مخصوص بالفيلسوف خاصة" ولا يصرح بالفضاء القابل للتأويل، كما فعل في الأغراض الثلاثة الأولى؛ ففي الأول حدده بما وضع على ألسنة البهائم، وفي الثاني والثالث حدده بالصور التخييلية، أما في الرابع فقال الغرض الأقصى. وهو فضاء إشاري لا يكشف عن نفسه إلا بالقراءة التأويلية. ولا يستطيع ابن المقفع التصريح به؛ لأنه سره والجوهر الذي حاول بوسائل متعددة ستره وتغطيته، وإيهامنا بغيره لحماية نفسه وديمومة خطابه. إلا أنه في الوقت ذاته دفع إلى قراءته مرات عدة. ولكن من ذا الذي يستطيع التوصل إليه؟ لقد خصه ابن المقفع بصفة الفيلسوف المتأمل، إنه المؤول الذي يستطيع إنجاز نص

جديد، وإنه الحاكم الذي يستطيع أن يتماهى مع المثقف، كما تماهى دبشليم الملك مع بيدبا الفيلسوف في معادلة (الفوق × التحت) لتكون العلاقة في إطار التماثل المتكافئ المؤدي إلى العدالة الاجتماعية.

نحن، إذا، أمام أربعة أنماط من القراءة تتسق تراتبيا على الشكل الآتي:

1- قراءة الفلاسفة والملوك المتماثلين معهم.
2- قراءة أهل الهزل من الشبان.
3- قراءة الملوك الباحثين عن التنزه في الصور التخييلية.
4- قراءة الملوك والسوقة المهتمين باقتنائه ونسخه.[13]

اختزل "ابن المقفع" المقام القضائي في كتاب "كليلة ودمنة" في الباب الثاني للكتاب، وهو: (باب الفحص عن أمر دمنة)، وفيه يُقاضَى "دمنة" بعدما كُشف خداعه، واستدراجُه "للأسد الملك" لقتل "الثور شتربة" ظلما. ونتج عن هذا الأمر ندمُ الأسد، وتحقيقه في الأمر، وتقديم "دمنة" للمحاكمة ومن ثم السجن فالقتل. لذلك اقتضت البنية الحديثة ومقاصد المشروع الأخلاقي أن تتضمن القصَّة محاكمة تُظهر الحق وتعاقب الجاني وترجع إلى الفضيلة منزلتها التي فقدتها في باب الأسد والثور.[14] وقد قام هذا الخطاب القضائي على الحوار الذي دار بين المتهم "دمنة" وما تضمنه كلامه من حجج موهمة ومراوغة لتبرئة ذمته والدفاع عن موقفه، وبين القاضي "النمر" وحججه كذلك في إدانته.

أوجه التقابل:

جعل الدكتور "طه عبد الرحمان" التقابل وسيلة من وسائل تشقيق الكلام وتوسيع آفاقه. لفعاليته التحليلية والتأثيرية والتبليغية والإقناعية، وهذا الشكل الثنائي التقابلي إنما أملته طبيعة القضايا المطروحة للمساءلة والبحث، ما جعل الدكتور "محمد بازي" يعدد أوجه هذا التقابل بأوجه ورود صورته وطبيعة تأليفه في كثير من المؤلفات العربية التي تراوحت مواقفها واتجاهاتها بين فكرية وكلامية ونقدية وفلسفية. أشار انطلاقا من هذا إلى:

1. آلية التقابل في الفكر العربي القديم.
2. التفكير المثنوي عند إخوان الصفا.
3. التقابل في بناء التعريفات.
4. التأويل والتمثيل والتهويل.
5. التفكير بالمقابل.
6. التقابل في كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي.
7. التقابل في التوقيعات.

8. التقابلات التشكيلية.
9. تقابل التناظر.
10. التقابل في التأليف: تقابل التتميم والتكميل، تقابل التلخيص، تقابل التصحيح والتصويب، تقابل المحاكاة، تقابل التجاوز والطرح.[15]

إن النسق التقابلي الذي تمليه المقامات القضائية بصورها المحاوراتية والتناظرية تتموضع في أكثر من صورة أو نوع في كتاب ابن المقفع، لكنا سنركز على أهمها في تشكيل الخطاب المحاكمي بناء ودلالة وتأويلا. وهذه الأشكال التقابلية وإن تنوعت تسمية وإطار هندسيا ومعرفيا حتى في هذه الخطابات فهي تتداخل وتتضافر في نسيج يمتنع معه القول بالتباين أو الاختلاف، ليتحقق نوع من الائتلاف والتكامل الذي يدفع بقارئ هذا النوع من الخطابات إلى حقيقة مفادها أن نسق التقابل إنما هو جبلة إنسانية فكرية تتعدد لتتوحد مفسحة مساحات للقول والتأول والتحليل، ومن ذلك صعوبة تخير الصورة التقابلية أو الأنواع الأكثر ظهورا وسيطرة في هذه المخاطبات، فنجد لها بناءً تقابليا تشكيليا تترجمه الصور الأسطورية والأنثربولوجية التي وظفت بها الحيوانات في الكتاب، ما يطرح هنا سؤال الرمز والرمز المقابل ويفتح أبوابا للتأويل والتفسير وقياس الرمز على المرموز إليه والكلام في هذا طويل وقال فيه المؤلفون والباحثون ما قالوا. ولا نريد هنا أن نستغرق في تكراره وقد سبق وأن بحثنا في الموضوع في مؤلف سابق.[16]

التقابل في بناء التعريفات في "باب الفحص في أمر دمنة":

يمثل باب "الفحص عن أمر دمنة" مقاما قضائيا حاضرا، والتعريفات فيه إنما جاءت بقيم حجاجية < تمثل في الغالب مقدمة للحجاج، مادام الحجاج يبحث بتحديده للمفاهيم، عن اتفاق المتحاجين حول أسس مشتركة، رغبة في إقناع جيد >.[17] ذكر "الجرجاني" في كتابه "التعريفات"، أن التعريف: < عبارة عن ذكر شئ تستلزم معرفته معرفة شئ آخر>.[18] وبمعنى آخر هو شئ مقابل شئ، والعلاقة هنا استلزامية، حيث لا يمكن التحقق من الأول أو معرفته ما لم يدرك ما يقابله. وغير بعيد عن هذا المعنى يعرفه "محمد بازي" بأنه: < بناء ذهني ولغوي مكثف لموضوع من الموضوعات، وقارئ التعاريف سيلاحظ كيف بنيت التعريفات بشكل تقابلي، لأن التقابل يقوم بإحداث التمثل الذهني عبر المقابل، يتجلى ذلك في التفكير المثنوي التقابلي عند العلماء العرب قديما، في تعريف الشئ بماهيته، أو بضده، أو بمثاله، والعقل بذلك يبسط المقابلات بشكل ظاهر أو خفي >[19]. والمقاربة في كلام "محمد بازي" كثيفة جدا وإحالية، لكنها توضح ببروز القصد الذي نهدف إليه من خلال إيراده هنا.

وما دمنا هنا نخضع الخطاب التعريفي للتحليل التقابلي، فسنهتم بتقابلية قيمه ومضامينه، لأن < معالجة التعريف من زاوية تحليل الخطاب لهي معالجة قيمية أكثر منها كمية

>[20]. إن قارئ باب "الفحص عن أمر دمنة" تستوقفه مجموعة من التعريفات التي تخص مسميات حسية ومجردة تجاذبها طرفان في سياق التقاضي أو المقاضاة التي يخضع لها "دمنة" باعتباره متهما بخداع الملك "الأسد" وتأليبه على مستشاره الثور "شترية" حتى قتله.

تتداخل في مقاضاة "دمنة" أطراف عدة: "أم الأسد"، "الأسد"، "القاضي"، لكن أهم التعريفات جاءت في مناظرة أم الأسد ودمنة؛ حيث كانت أول من عرف بجرم دمنة وأكثرهم حرصا على معاقبته:

موضوع التعريف	تعريف أم الأسد	تعريف دمنة
الفاسق الفاجر	انظر إلى هذا الفاسق الفاجر الذي ركب الأمر العظيم كم يأخذ بأعين الناس ويبرئ نفسه	إن الفاسق الفاجر من يذيع السر ولم يدفنه، والرجل الذي يلبس لباس المرأة، والمرأة التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يزعم أنه رب البيت، ومن ينطق في مجتمع عند الملك بما لا يُسأل عنه.
الشقي	يا شقي، أما تعلم من نفسك سوء عملك ومكرك وفجورك.	الشقي الذي يرتكب المنكر ولا يريد لأحد خيرا ولا يدفع عن نفسه المكروه
الخائن الفاجر	أيها الخائن الفاجر إنك لتجترئ على مثل هذا القول.	الخائن الفاجر الذي يؤتى بالنصيحة ويمكن من عدوه ثم لا يشكر ذلك ولا يعرفه لمن أتاه به ولكن يريد قتله على غير ذنب.
الغادر الفاجر	أيها الغادر الفاجر إن في سوء عملك لشاغلا لو عقلت عن ضرب الأمثال.	إنما الغادر من أخاف من عمل في أمنه وعادى من كشف له عداوة أعدائه.
الكاذب	كأنك ترجو أيها الكاذب أن تنجو بتسطير المقال مما اجترمت.	إنما الكاذب من كافى بالإحسان إساءةً وبالخير شرا وبالأمن خوفا.[1]

[1] عبد الله بن المقفع، كتاب كليلة ودمنة، عني بتنقيحه ونشره وشرح ألفاظه لويس شيخو، دار المشرق، بيروت، ط 14، 1994م، ص ص: 126، 127.

نجدنا هنا أمام شكلين من التعريفات؛ الأول: تعريفات "أم الأسد" وهي غير مباشرة إنما تستفاد استنتاجا، ولم تأت مباشرة كما هو شأن تعريفات دمنة، فقارئ كلامها يحمله على الوصف، ويربطه بأجوبة "دمنة" السابقة عليه، ثم إذا ركَّبه استحال تعريفا، فهي في هذه الحال كانت مُستلزَمة؛ لأنها بنيت على سابق قول "دمنة"، ومُستلزِمة لأنها أملت النقيض أو القيمة المقابلة التي بنى عليها دمنة تعريفاته:

- **الفاسق الفاجر: هو الذي يركب الأمر العظيم ويأخذ بأعين الناس ويبرئ نفسه.**
- **الشقي: سئ النفس، الماكر، الفاجر.**
- **الخائن الفاجر: المجترئ على تبرئة نفسه وهو مذنب (استنتاجا من رده السابق على قولها هذا).**
- **الكاذب: الذي يرجو النجاة مما فعل بتسطيره وتنميقه القول.**

أما تعريفات دمنة فكانت مباشرة ودقيقة تظهر بلاغة وجرأة وتحفزا كبيرا لرد التهم على مناظره وتبرئة نفسه منها، في تعارض ظاهر يتحقق فيه المبدآن الأول والثاني من المبادئ الأربعة للتبادل القولي المتحول إلى حجاج جدلي:

- **مبدأ الاختلاف:** وعليه يبنى الجدل بوصفه جنسا من القول ينشأ عند تباعد الرأيين وذهاب كل من الخصمين إلى أحد النقيضين.
- **مبدأ الاعتراض:** ينهض به كل مجادل، فيؤدي وظيفتين متكاملتين: دعم أطروحته ودحض أطروحة خصمه.
- **مبدأ الاحتجاج بالحجج العقلية:** وهو ما يحصن الممارسة الجدلية من الممارسة السفسطائية والممارسة الخطابية التي تنفذ الرأي من باب القلب متى رفض حارس العقل نفاذها، وتنفّق المرغوب عنه عقلا مقدمة إياه في صورة المرغوب فيه.
- **مبدأ السعي إلى إظهار الحق وتبيين الصواب:** وفيها تفويق للجانب المعرفي على الغلبة والانتصار، المفضيين إلى المغالطة والمشاغبة والمعاندة والاحتيال، وإلى توظيف جميع الوسائل لإدراك المقاصد.[21]

فالاختلاف بين الطرفين (أم الأسد، ودمنة) قائم، أما الاعتراض فإن دمنة قد أوغل فيه وانتصر لأنه دفع أم الأسد في النهاية إلى الصمت والانسحاب، حيث أمعن في تدقيق كلامه وسوق حججه ورد كل ما يمكن أن يدينه من كلام أم الأسد.

أما أم الأسد فقد أخلَّت بشرط الإقرار بكفاءة الخصم ورتبته[22]، حيث إن شعورها بالاستعلاء مرتبةً كونها أم الأسد وذات مكانة أعلى من دمنة وإن كان من حاشية الأسد ومقربيه، وتحقيرها له لما جناه من ذنب الكيد للثور المستشار عند الأسد الملك جعلا مناظرتها له ضعيفة ما مكن خصمها منها وألجأها إلى الصمت اعترافا بقوة حجاجه ودهائه ومكره، وهذا ما اعترفت به أمام الأسد وخافت من تأثيره على حكمه عليه.

وفي مقام آخر، يقيس دمنة مفهومي صلاح القضاة وفسادهم على مقابلين آخرين هما: الظن واليقين؛ حين يعترض على القاضي الآخذ بالظن، ويحكم عليه بالفساد لظنه وشكه، فيما لا يتحقق صلاح القضاة إلا باليقين:

- قال له القاضي: **إنه وإن سكت جميع من حضرك ولم يقولوا شيئا فإن ظنونهم قد اجتمعت على أنك مجرم ولا خير لك في الحياة بعد استقرار تهمتك في قلوبهم، فلا أرى شيئا خيرا لك من الإقرار بذنبك...**

- فأجابه دمنة: **إن القضاة لا تقضي بظنونها ولا بظنون العامة ولا الخاصة. وقد علمت أن الظن لا يغني من الحق شيئا فإني وإن ظننتم جميعا أني صاحب هذا الجرم فإني أعلم بنفسي منكم وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه.**[23]

قياس دمنة مبني على الطعن في المقتضى الظنّي الذي بنى عليه القاضي اتهامه بلا برهان، وعلى أساس هذه المقدمات الظنية جاء رده جدليا. لقد توخى دمنة **قياس الضمير** أو **المضمر** وهو يشتمل على مقدمتين؛ مقدمة كبرى وأخرى صغرى وتخرج منهما أو تبنى عليهما نتيجة لا تذكر بل يستخلصها المخاطَب بالضرورة:

- **المقدمة الأولى**: إن القضاة لا تقضي بظنونها ولا بظنون العامة ولا الخاص.
- **المقدمة الثانية**: ظننتم جميعا أني صاحب هذا الجرم.
- **النتيجة المضمرة**: **أنتم لستم قضاة صالحين**.

كما استعمل **القياس التام**، وهو يشتمل على مقدمتين كبرى وصغرى تخرج منهما نتيجة، وتصرف في توزيع جمل هذا القياس فقدَّم النتيجة وأخر المقدمات:

- **النتيجة:** إني أعلم بنفسي منكم.
- **المقدمة الأولى** (الظاهرة): علمي بنفسي يقين لا شك فيه.
- **المقدمة الثانية** (المضمرة): **علمكم بي شك لا يقين فيه**.

بهذا حدد دمنة تعريفا للقضاة أو أضاف إلى ما يعرف عنهم أن: **القضاة لا تقضي بظنونها ولا بظنون العامة ولا الخاصة**. مجيبا في سياق دفاعي القاضي الذي حكم بالظن، وصاغ بشكل غير مباشر وعن غير قصد تعريفا مغلوطا للقضاة حين قرن حكمه على المتهم بالظن، فأعطى المجرم حجة عليه بدل أن يكون توخي القاضي اليقين والتحقق حجة له على المتهم.

التعريف والتعريف المغالطي:

نجد في تعريفات "أم الأسد" و"دمنة" أنواعا ثلاثة، هي:

1- **التعريف بالإحاطة:** يرتكز على تقديم الخصائص المميزة للشئ، لإعطائه تمثيلا ذهنيا مجردا.

2- **التعريف بالتحديد:** هو عملية تعداد العناصر المكونة للشئ، من أجل إعطائه تمثيلا ملموسا.

3- **التعريف الوصفي:** إجراء تعريفي يتم فيه التغاضي عن الخصائص الجوهرية للشئ، وتعويض المصطلح بسلسلة من المفردات الوصفية.[24]

وهذا الأخير خص كثيرا تعريفات "أم الأسد".

– بنى "دمنة" تعريفاته لاسيما في مشهد مقاضاته وحواره مع القاضي- على المغالطة، وكذلك هو الأمر في بعض أجزاء أخرى من الباب، والمغالطة < قياس يبدو سليما ولكنه غير سليم >.[25] ونستطيع وصف جداله بالسفسطة أيضا، < حيث كان وفيا في سجاله لمنطق البلاغة السفسطائية الذي يعتمد من جهة على ما تشابه من الحقائق والمظاهر الحسية الخادعة والأسلوب المنمق، ويعتمد من جهة أخرى على خرق المنطق الجدلي القائم على نسقية تراتبية منتظمة في بناء الخطاب، بنوع من الاستطراد والتناسل السردي في شكل متواليات حكائية قد تشغل السامع عن جوهر القول وثمرته بغرائبيتها وصورها وتزاويقها >.[26] وهذا يفسر حضور التمثيل، أو القصص المثلية في حجاجياته:

- مثل: **"المرأة والمصور والعبد"** الذي ساقه حجة ثانية بعد أن استفسره الأسد "الملك" عن مغزى حجته الأولى، وهو قوله على لسان العلماء:
< إنه من صدَّق فيما يُشبَّه عليه ينبغي الشك فيه وكذَّب بما ينبغي أن يُصدَّق فيه أصابه ما أصاب المرأة التي بذلت بمالها لعبدها بتشبيهه عليها >[27].

- ومثل **"المتطبب الكاذب"** الذي جاء به حجة ثانية بعد أن طلب إليه القاضي تفسير ذكره الذي تلا تعقيبه على سكوت الحاضرين عن الشهادة فيه؛ لأنهم لم يعلموا من أمره علما واضحا يتكلمون به وكرهوا القول بالظنون خوفا من أن يدخل قولهم حكما أو يوقع قتلا. فلما رأى دمنة سكوتهم تكلم فقال: **< إني لو كنت مجرما لسررت بسكوتهم عن القول في أمري إذ لم تعلموا لي جرما لأن كل من لم يُعلم له جرم فلا سبيل عليه فهو البرئ المعذور. ولكل قول عاقبة عاجلة أو آجلة فمن عرَّضني لعطب بغير علم أو قال في أمري بالشبهة والظن أصابه عن عاقبة قوله ما أصاب المتطبب الذي انتجب علم ما لا علم له به >**[28].

- ومثل **"الرجل والمرأتين"** الذي جاء حجة داعمة لرده على شهادة سيد الخنازير فيه؛ حين رد خُلُق المرء إلى طبيعة خلقته: **< وإن كنت تزعم أن الخير والشر إنما يكونان بالعلامات فكذلك إذا لا حمد للمحسن ولا ذم على المسئ ولا أجدني في هذا أيضا إلا معذورا ولا أراك تنطق إلا بعذري وتذكر براءتي وأنت لا تدري ولا تفكر فيما تقول >**[29].

- ومثل **"البازيار القاذف عبد مولاه"** وبه زكَّى احتجاجه على حكم القاضي فيه بالظن: **< وإن من شقاء جدي أيضا أنك لم تزل في أنفس الناس فاضلا في رأيك**

وفي حكمك حتى أنسيت ذلك في أمري فتركت علم القضاة وانصرفت إلى العمل بالظنون التي تختلف بها الحالات في الأمور>[30]

ولكل مثل من هذه الأمثال سياق، وضرب من ضروب الحجاج المغالطي الذي جاء في صور وتسميات نأتي إليها أمام كل نوع، وهذا من قبيل التعريف التشبيهي، أو التشبيه الداعم للتعريف؛ فقد "يلجأ التعريف أيضا إلى التشبيه، فيستغني عن الشئ في حد ذاته، ويختار شيئا شبيها معروفا ومشهورا، ولو كان التشبيه مغاليا أو تبسيطا أو قائما خادعا؛ لأن الحجة التشبيهية، كمعادلة تبسيطية تتغاضى عن اختلاف السياقات، فتخدع الأذهان بمظهرها الصارم؛ أو تنشط الخيال بما تحمله من معلومات ملموسة.[31]

التعريف المغالطي	المثل / التشبيه الداعم للتعريف المغالطي
إنه من صدَّق فيما يُشبَّه عليه ينبغي الشك فيه وكذَّب بما ينبغي أن يُصدَّق فيه أصابه ما أصاب المرأة التي بذلت بمالها لعبدها بتشبيهه عليها.	مثل المرأة والمصور والعبد
إني لو كنت مجرما لسررت بسكوتهم عن القول في أمري إذ لم تعلموا لي جرما لأن كل من لم يُعلم له جرم فلا سبيل عليه فهو البرئ المعذور. ولكل قول عاقبة عاجلة أو آجلة فمن عرَّضني لعطب بغير علم أو قال في أمري بالشبهة والظن أصابه عن عاقبة قوله ما أصاب المتطبب الذي انتجب علم ما لا علم له به.	مثل المتطبب الكاذب
وإن كنت تزعم أن الخير والشر إنما يكونان بالعلامات فكذلك إذا لا حمد للمحسن ولا ذم على المسئ ولا أجدني في هذا أيضا إلا معذورا ولا أراك تنطق إلا بعذري وتذكر براءتي وأنت لا تدري ولا تفكر فيما تقول.	مثل الرجل والمرأتين
وإن من شقاء جدي أيضا أنك لم تزل في أنفس الناس فاضلا في رأيك وفي حكمك حتى أنسيت ذلك في أمري فتركت علم القضاة وانصرفت إلى العمل بالظنون التي تختلف بها الحالات في الأمور.	مثل البازيار القاذف عبد مولاه

والمغالطة هنا، أو التعريف المغالطي نوع من الاستدراج أيضا، والاستدراج له بدائل لفظية ومرادفات عديدة تزخر بها المدونة النقدية العربية من قبيل: "التمويه" و"الاحتيال" و"الإلهاء" و"الاستمالة"، ...

والمقصود بالاستدراج مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، إذن لم يبتعد المعنى عن المغالطة والسفسطة، وهو يتجاوز المقصد الجمالي إلى التأثيري بغرض استدراج

الخصم إلى التسليم، كما يمكن للمستدرج بهذا تغيير صور الأشياء ومقاديرها في العيون، ليستميل القلوب ويثني الأعناق ويبلغ الغايات بكل حذق واقتدار.[32]

يجمع "كيليطو" السفسطة والاستدراج والتنميق والاستمالة تحت مسمى "الاقتناص": < يقال إن الكلام يترجم ما يجول في الفكر، وإن العلامات تنبئ بما يحدث في ذهن من يستعملها، أي أنه من خلالها يمكن معرفة ما يدور بخلده. هذا القول ليس صحيحا في كل المناسبات؛ لأن الكلام قد يتحول إلى شبكة لاقتناص ضحية، لاقتناص المستمع. فعوض أن تظهر العلامات ما يدور بخلد المتكلم فإنها تصير حجابا يعسر خرقه، أو تصير بمثابة الحَبِّ المنثور على شرك الصياد >.[33]

لم تعوز الحيلة دمنة أبدا، لقد برع في نسج كثير من حيل الكلام، وأمعن في استدراج مجادليه، أو خصومه في المحاكمة، كما أمعن في إفحامهم، لم تكن مغالطاته في أصل كلامه ومنطقه وما ساق له من أساليب التمثيل، التي نجح بها في تجسيد المجرد وتقريب الذهني، وهذه هي وظيفة المثل كما يحددها "الجرجاني" < بنقل النفس من الشئ المدرك بالعقل المحض، وبالفكرة في القلب، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع، وعلى حد الضرورة >.[34] وكذا وضع المجردات في مثال مناسب من المحسوسات أو المعقولات؛ بحيث يتطابقان مثليا عند صاحب التمثيل وعند الممثل له.[35]

لقد كانت المغالطة في إرسال القول السليم في السياق الخطأ؛ السياق المغالطي < إن دمنة لا يهتم بقول الحقيقة والإسهام في تحقيق العدالة، وإنما كانت غايته إثارة الإعجاب والافتتان بالقول الخادع الذي يتناول الظاهر، ويروم تحقيق المنفعة الشخصية لا الخير والعدالة، إن خطابه من جنس خطاب أولئك الذين يمكنهم بقدرة الكلام أن يظهروا الأشياء الصغيرة كبيرة، ويجعلوا الكبيرة تبدو صغيرة، ويجعلوا الجديد عتيقا، بل إن خطابه المنمق الذي يخوض في مرتع المتشابهات ومناطق الالتباس ومنابت الظن والتشكيك لا يستهدف بالضرورة القوة العقلية المائزة في الإنسان، وإنما يستثير الجوانب الانفعالية لدى المستمع حتى يفقد توازنه وتمالكه لنفسه؛ لأن هذا النوع من البلاغة الشعبية على حد قول ميشال فوكو يسعى إلى مفاجأة المستمعين بانفعالات قوية دون انتظار حكمهم >.[36]

لقد نجح دمنة بهذه السبل في إفحام "أم الأسد" فأحجمت عن متابعة جداله، وجعلته براعته في ردّ القول على صاحبه يرد الصاع صاعين لسيد الخنازير حينما شرع في خصومة دمنة عن طريق ما يمكننا تسميته بـ: **"فن توجيه الأهواء"**؛ وهو معرفة المُخاطِب بسيكولوجية المخاطَب وأحواله النفسية أو بما يحركه ويؤثر فيه.[37] حين أراد أن يربط بين خِلقة دمنة

وخُلُقه، بأسلوب أقرب إلى قلة المنطق والعقل، ما جعل خصمه "دمنة" يغالبه ويغلبه بالحجة نفسها؛ فاسترسل في سرد نقائصه وعرَّاه أمام جميع من حضر المحاكمة:

حجة سيد الخنازير على دمنة	حجة دمنة على سيد الخنازير
إن العلماء قد قالوا: • إن من صغرت عينه اليسرى وهي لا تزال تختلج. • ومال أنفه بعض الميل إلى شقه الأيمن. • وبَعُدَ ما بين حاجبيه وكانت منابت شعر جسده ثلاث شعرات ثلاث شعرات. • وإذا مشى كان أكثر نظره على الأرض ويلتفت تارة بعد تارة. فإن ذلك مستجمع للغدر وطباع الآثام والبغي على الصالحين.	أمرك أنت أعجب فيما قد عرفت من: • قذارة جسمك ونجاستك. • وجرأتك على ذلك من الدنو إلى طعام الملك والقيام عليه وبين يديه كالبرئ من الدنس. • ولست بالمطلع على عيبك دون أهل العقل من أهل المجلس. • ولم يمنعني من إبداء عيبك قبل اليوم إلا مودة كانت ما بيني وبينك. • فأما إذ قد طعنت علي وابتدأتني بالظلم لما انطويت عليه من عداوتي وقذفتني على غير علم بالباطل بمحضر الجند فإني قائل بما أعلم من عيبك مبدي الذي أخفيت من دنسك الذي لم يكن معه داعٍ أن تخدم الملك ولا أن تخدم الذي تحته. • فحق على من عرفك حقّ المعرفة أن يمنع الملك من استعمالك ويدفعه إلى عزلك عن طعامه.

لقد بلغت حجته حدا من الإقناع جعل الأسد "الملك" يعزله عن منصبه ويبعده عن مجلسه ومأكله خاصة. والأمر نفسه تحقق حين ردَّ على القاضي حجته بإبطالها وقلبها عليه، حيث حكم القاضي بالظن، جاعلا الشك حجة في حكمه، فأبطلها دمنة بمنطق اليقين، أو الحكم بعد التثبت واليقين. وهو ما فتح الباب مشرعا أمام اتهامه بالفساد لظنه، وإبعاده عن زمرة القضاة الصالحين الذين لا يحكمون إلا باليقين.

- اعتمد دمنة في حجاجاته المغالطية القائمة على فن توجيه الأهواء والتأثير عليها ما أسماه الدكتور "محمد مشبال" بـ: **"بناء الذات وهدم الآخر"**[38]؛ حيث كان لزاما عليه في سعيه إلى إظهار براءته وصفاء سريرته وبعده كل البعد عن الكيد للملك بدفعه إلى قتل مستشاره "الثور شتربة"، أن يمعن في بناء ذاته وتلميعها وتعداد فضائلها بهدم مناوئيه وخصومه وكل من وقف منه موقف المدعي، فاسترسل في الحط من حجج كل خصم وهدمها بمعول قوة منطقه ودهاء حجاجه وتمكنه من المراوغة والاحتيال اللفظي الذي أثنى به الأسد "الملك" عن مواجهته وغلب به محاججيه، وجعل بقية الحضور ممن عرفه يحجمون عن خصومته، بل أرسل في نفوسهم شكوكا جعلتهم وإن تأكد لهم جرمه- لا يملكون حيلة ولا قوة لدفع أقواله ومواجهته.

– إن المستمع (خصما كان أو حكما أو جمهورا) " قد يكون على علم بالطبيعة الخادعة للكلام، فيكون حينئذ على أهبة واستعداد لتلقي الخطاب بكامل الوعي والتحرز؛ أي أنه يفترض أن مخاطبه يحاول خداعه فلا يتقبل أقواله بدون أن ينتقدها ويفحص الزيف الذي قد تشتمل عليه"[39]. وهذا ما أدركته "أم الأسد" منذ البداية، فكانت أول من تصدى لـ "دمنة" بالادعاء والمحاججة ومقابلة الحجة بالحجة والتعريف بالتعريف إلى أن استنفذت ما لديها، موقنة أنها أمام مخادع حذر حاضر البديهة بارع الأسلوب وواثق الحجة، فانسحبت وحذرت الأسد "الملك" من مغبة وقوعه ضحية لحيل كلامه وقد سبق وأن فعل - وكيده بعدها إن هو صفح عنه ونجاه، حيث إن الأسد نفسه لم يحر حيلة وجوابا أمامه، لهذا صدَّر له القاضي والنمر لينظرا في أمره ويتثبتا من جرمه.

خاتمة:

تكشف تقابلية القيم في بناء التعريفات في "باب الفحص عن أمر دمنة" عن نسق راسخ في المؤلفات العربية القديمة، وهو البناء الثنائي أو المثنوي الذي يهندس الخطابات في سياقات تناظرية تعالج القيمة أو الموضوع ونظيره، وتحقق هذا بشكله المعرفي في المقامات القضائية أو خطابات المحاكمات المؤسسة على الادعاء والنفي، الاتهام والدفاع، الرأي ونقيضه، الحجة والحجة التي تدحضها.

لقد أفسح خطاب المرافعات في "باب الفحص عن أمر دمنة" المجال واسعا لإعادة صياغة مفاهيم كثيرة اتضح أنها يمكن أن تضم محمولات قيمية أخرى وإن جاءت أحيانا في سياق حجاجي مغالطي، لكنها صحيحة في سياق تشكلها في ذاتها، عكستها تقابلية التعريف والتعريف المغالطي، وتجلت في كثير من القيم، من بينها قيمتا صلاح القضاة وفسادهم المنوطتان بقيمتين أخريين وهما: الظن واليقين. كما أبانت عن آليات حجاجية مغالطية كآلية: بناء الذات بهدم

الآخر. وفي هذا رسالة متضمنة في هذه الخطابات الحيوانية تقضي بالنظر في القضاء وأهم أخلاقياته ومقوماته. وكذلك هو الأمر مع التعريفات المتقابلة للقيم الأخلاقية الأخرى.

كل هذا يحيلنا إلى حقيقة التقابل التي جُبل عليها التفكير البشري، التفكير بالمقابل، باستدعاء النظير، وفي كل هذا حث على لا محدودية التفكير، وقابلية الأفكار والقيم للتعدد متى أوجدنا لها مساقاتها وخطاباتها التي تتمظهر من خلالها.

الهوامش:

[1] محمد بازي، البنى التقابلية، خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن، ط1، 2015، ص: 212، عن: أحمد بن عبد الله، كتاب إخوان الصفا وخلان الوفا، مطبعة نخبة الأخبار، محلة باهنيدي بازار، 1306ه، ص: 07.

[2] محمد بازي، نفسه، ص : 212.

[3] ينظر: محمد بازي، نفسه، ص : 215.

[4] ينظر: مصطفى العطار، لغة التخاطب الحجاجي، دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 207، ص: 40.

[5] ينظر: محمد بازي، البنى التقابلية، ص: 18.

[6] وسيمة نجاح مصمودي، المقاربات العرفانية وتحديث الفكر البلاغي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017، ص: 13.

[7] حسيب الكوش، السرديات المعرفية من الأيقونية إلى التوترية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن ط1، 2016، ص: 07.

[8] ينظر: محمد بازي، البنى التقابلية، ص: 238.

[9] ينظر: نفسه، ص ص: 208، 209.

[10] كتاب كليلة ودمنة، عني بتنقيحه ونشره وشرح ألفاظه لويس شيخو، دار المشرق، بيروت، ط 14، 1994، ص: 51.

[11] نفسه، ص ص: 51، 52.

[12] كتاب كليلة ودمنة، عني بتنقيحه ونشره وشرح ألفاظه لويس شيخو، ص: 59.

[13] ينظر: يوسف أحمد إسماعيل، كليلة ودمنة وخطاب التأويل، مجلة واتا للترجمة واللغات، السنة الأولى، العدد 4، خريف 2007م.

[14] ينظر: صالح بن رمضان، المنهج التداولي في قراءة الحكاية المثلية "الفحص عن أمر دمنة" نموذجا، ثقافات، مجلة ثقافية فصلية تصدر عن كلية الآداب، جامعة البحرين، ع 1، 2004 م، ص: 168.

[15] ينظر: محمد بازي، البنى التقابلية، ص ص: 209،...،232.

[16] هاجر مدقن، حجاج التمثيل في الآداب السلطانية، مقاربة تداولية، دار النابغة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 2014.

[17] محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص: 26.

[18] الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص: 62.

[19] محمد بازي، البنى التقابلية، ص: 215.

[20] أديب سيف، منطق تحليل الخطاب التعريفي بين أفعال الكلام والنقد الجديد، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2015م، ص: 11.

[21] عبد الله بهلول، الحجاج الجدلي خصائصه وتشكلاته الأجناسية، في نماذج من التراث اليوناني والعربي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص: 166.

[22] عبد الله بهلول، الحجاج الجدلي خصائصه وتشكلاته الأجناسية، في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ص ص: 178،179.

[23] عبد الله بن المقفع، كتاب كليلة ودمنة، ص: 138.

[24] نفسه، ص ص: 26، 27.

[25] فرانز فان إيمرن، روب غروتندورست، نظرية نسقية في الحجاج، المقاربة الذريعية – الجدلية، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجدي المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص: 185.

[26] عبد العزيز لحويدق، البلاغة والسلطة، مقاربة حجاجية لكليلة ودمنة، "قصة الأسد والثور"أنموذجا، من كتاب: التحليل الحجاجي للخطاب، لمجموعة من الباحثين، إشراف وتقديم: د. أحمد قادم، د. سعيد العوادي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص: 519.

[27] كتاب كليلة ودمنة، عني بتنقيحه ونشره وشرح ألفاظه لويس شيخو، ص: 123.

[28] نفسه، ص: 132.

[29] نفسه، ص: 134.

[30] نفسه، ص: 138.

[31] محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص: 28.

[32] ينظر: عبد الله بهلول، الحجاج الجدلي خصائصه وتشكلاته الأجناسية، في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ص ص: 221، ...، 225.

[33] عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1999م، ص: 40.

[34] نفسه، ص: 37.

[35] محمد بازي، البنى التقابلية، ص: 215.

[36] عبد العزيز لحويدق، البلاغة والسلطة، مقاربة حجاجية لكليلة ودمنة، "قصة الأسد والثور"أنموذجا، ص ص: 519، 520.

[37] محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017، ص: 257.

[38] نفسه، ص: 238.

[39] عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، ص: 40.